بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية نظام التربية والتعليم فى الأقطار الاسلامية و أثره البعيد فى اتجاهاتها و قياداتها

(محاضرة ألقيت فى المهرجان التعليمى لندوة العلماء فى ٢٦ شوال١٣٩٥هـ ١ نوفمبر ١٩٧٥م، فى حفل عظيم حضره عدد كبير من قادة الرأى ورجال التربية و كبار الأساتذة فى الأقطار العربية والاسلامية ، وألوف من المثقفين و جمهور المسلمين فى الهند) .

سادتى الأجلاء ، وزملائى العاملين فى مجال التعليم والتربية ، و إخوانى المعنيين بحاضر الأمة الاسلامية ومستقبلها ، و رسالتها و شخصيتها .

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التى لا تسنح إلا بعد آجال طويلة ، للتحدث فى موضوع أعتقد أنه بالنسبة إلى الأمة الاسلامية والعالم الاسلامى ، قضية الحياة والموت ، وقضية الوجود و العدم ، وأومن باخلاص وفى حماس ، أنه إذا لم تكن لهذا الالتقاء الاسلامى العالمى الكريم ، قيمة ونتيجة غير هذا البحث والوصول إلى نتيجة فيه ، كان التقاءاً مباركا حاسماً يملى تاريخاً جديداً، ويفتتح عهداً سعيداً

للأمة الاسلامية باذن الله تعالى .

و استأذنكم أيها السادة ! أن أتحدث فى هذا الموضوع فى شئ من التوسع ، و فى شئ من الصراحة و الوضوح ، و إن طبيعة الموضوع تقتضى أن أبدأ الحكاية من بعيد ، فان القضية ليست بنت الساعة و وليدة شهور وأعوام ، إنما هى قضية طويلة الأمد ، عميقة الجذور فى حياة الأمة الاسلامية و تاريخها .

إن الحقيقة النفسية التاريخية التى لا يمكن إنكارها أو تجاهلها . هو إمكان وجود أفراد فى المجتمع الاسلامى لم تنشرح صدورهم للعقيدة التى يقوم عليها هذا المجتمع . ولم يؤمنوا بالحقائق والمبادئ التى يؤمن بها ، والأهداف و المثل التى يعيش لها .

و تلك طبيعة كل مجتمع يقوم على أساس عقيدة معينة ، و حدود مرسومة واضحة ، إذا تخطاها فرد من أفراد هذا المجتمع أو الجماعة . أعتبر خارجاً من دائرته ، أوثائراً عليها ، و فقد جميع الحقوق والامتيازات التى كان يتمتع بها ، خلافاً للجنسيات والقوميات التى تفتح صدرها لكل عقيدة ، وخلق وتصرف ، بشرط أن لا يغير صاحبه جنسيته أوقوميته ، ولا تصدر منه خيانة لأمته وحكومته .

و تتضخم هذه المشكلة و تتضاعف أخطارها و أضرارها

وتتضخم مسئولية القائمين على هذا المجتمع ، الحريصين على وحدته وسلامته ، وحياته وقوته ، إذا ألح هذا العنصر — الذى لم يخلص لهذه العقيدة التى قام عليها هـذا المجتمع أو لم يسغها . . . . أو لفظها بعد ما أساغها لأى سبب من الأسباب — ألح هذا العنصر على البقاء فى إطار هـذا المجتمع المؤمن ، كجزء من أجزائه ، وربط مصيره بمصيره لمصلحة من المصالح ، أو لاضطراره إلى ذلك ، من غـير أن يذيب نفسه فى حرارته ، ويصهرها فى بوتقته ، ومن غير أن يقتنع بما يقوم عليه هذا المجتمع من عقائد و مبادئ ، و خصائص و مقومات ، ويؤمن بها بإخلاص و فى حماس ، و نجح فى ذلك بذكائه أو بغفلة من القائمين على هذا المجتمع و لم يفطن له .

و هو أشد خطراً و أعمق أثراً من « الردة » التى يفارق بها صاحبها مجتمعه الذى ولد و نشأ فيه ، أو الدين و العقيدة التى آمن بها، أو خيل أنه آمن بها بحكم الوراثة أو النشأة أو البيئة .

وتتعقد هذه المشكلة حين ينجح هذا العنصر بلباقتـه أو مقدرته فى إحراز الثقة من هذا المجتمع والسيطرة عليـه ، وتملك زمامه ، فيتبوأ منصب الحكم أو منصب القادة والتوجيه ، هنالك يرغم هذا

المجتمع على أن ينحو نحواً لا يحبه أو لايتحمس له ، بل يعتبره في بعض الأحيان مروقاً من الدين ، أوالثورة على المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها ، و قد يساق إلى الغايات التي يعتبرها منافية لدينه وعقيدته كما تساق القطعان من الغنم أو البقر، ويعيش في صراع نفسي عميق من أعنف أنواع الصراع الذي عرفه تاريخ البشرية ، و تاريخ الأخلاق و علوم النفس ، وتاريخ الديانات و المذاهب . فلا هو حي يتمتع بالحياة و حريتها ونعيمها ، و لا هو ميت قد استراح و هدأ .

و بتأثير هذه القيادة التي لا تتفق مع عقيدة هـــذا المجتمع و طبيعته ، بل تحاربها وتنسفها نسفاً، تنتشر الردة العقائدية بمعناها الواسع فيمرق عدد كبير ممن ليست عندهم حصانة خلقية نفسية ، أو شحنة إيمانية روحية ، أو قوة علمية فكرية ، وعدد كبير من عباد الأموال و المناصب ، والعز و الفخار و من « الانتهازيين » .

أو ينتشر النفاق انتشاراً فظيعاً فيضعف قوة هذا المجتمع و ينخر هيكله ، وينتشر المكر ، وتكثر المؤامرات ويفشو الغدر والخيانة ، و يهون بيع الضمائر و بيع المقدسات والأمجاد ، و أراضي البلاد بثمن بخس دراهم معدودة ، ويكثر الخونة وصنائع العدو ووكلاؤه،

و خدمة مصالحه ، كثيرة فاحشة ، لا يوجد لها نظير فى المجتمعات البشرية التى لاتمتحن بمثل هذه المحنة . وليست بين هذه المجتمعات و بين قياداتها هوة عميقة واسعة ، عقائدية أو مبدئية .

و يعجز هذا المجتمع عن مقاومة أى عـــدو مهاجم ، أو خطر داهم ، للبلبلة الفكرية التى يعانيها ، والصراع النفسى الذى يقاسيه ، ولكره عدد كبير لهذه القيادات ، وعدم تحمسه — بطبيعة الحال — للشعارات التى تهتف بهـــا هـذه القيادات ، و الغايات التى تقاتل فى سبيلها هذه الزعامات أو الحكومات ، و ذلك كله من طبيعة الأشياء ، و منطق الواقع ، و خصائص النفس الانسانية ، يشهد له التـاريخ القديم ، و يشهد له التاريخ المعـاصر فى المناطق التى لم تذق لذة الحب للقادة و الزعماء ، أو الحكام و الأمراء ، و لم يكن هناك انسجام عاطفى ، أوتجاوب فكرى بين الشعب والقيادة .

و قد واجـه المجتمع الاسلامى الذى قام على أساس الدعوة الاسلامية ، و فى أحضان الرسالة المحمدية ، هـذا الواقع الطبيعى التاريخى الذى لا مفر منه لأى جماعـــة تقوم على أساس الايمـان و العقيدة . و الديانة و التقوى ، والدعوة والجهاد ، وإنما تظهر بادرة « النفاق » فى بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين ، و قيادتين

متقابلتين ، مهما كانت النسبة بينهما بعيدة فى الضعف و القوة . و القلة و الكثرة ، هنالك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح أولا بين هاتين الدعوتين ، و يتردد فى إيثار إحداهما على الأخرى . ثم ينحاز إلى دعوة فيكون فى معسكرها ، و يعطيها ولاءه وحبه العاطفى ، إلا أن مصالحه المادية و انتشار هذه الدعوة المقابلة و انتصارها ، لا يسمح له باعلان موقفه و الانضواء إلى الدعوة الأولى، وقطعه للحبال التى تربطه بالدعوة المقابلة ، وذلك ماعبر الله عنه بقوله : «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلآء ولا إلى هؤلآء»(١) و بقوله «ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه» (٢) .

لذلك لم يكن — كما يرجح أكثر المفسرين — نفاق فى مكة . لأن الاسلام كان هنالك مغلوباً على أمره لايملك حولا ولاطولا . و لا يملك لأحد نفعاً و لا ضراً . و لم تكن هنالك قوتان متماثلتان ، إنما كان المشركون الأقوياء القاهرون . و المؤمنون المضطهدون المستضعفون . يخافون أن يتخطفهم الناس . فلما انتقل الاسلام إلى المدينة . و قام المجتمع الاسلامى بجميع لوازمه نجم النفاق و رفع رأسه ، و كانت ظاهرة طبيعية نفسية لابد منها .

---

(١) سورة النساء : ١٤٣ . (٢) سورة الحج : ١١

و لكن وجود الرسول ﷺ ، و استمرار الوحى قد أمن هذا المجتمع الوليد من غائلة هؤلاء المنافقين ، ففضحهم القرآن فى عدة مواضع منه و أزاح الستار عنهم ، و عرفهم المسلمون فى الغالب و كرهوهم كرهاً شديداً ، و لفظهم المجتمع فلم يستطيعوا أن يتسربوا فيه ويندمجوا ، فضلا عن أن يحرزوا ثقة و احتراماً ، أو يتبوأوا قيادة و رئاسة ، و بقى المجتمع الاسلامى الأول صحيحاً وسليماً لم يضعفه النفاق ، و لم يعبث به المنافقون ، وضعف شأنهم حتى اعتقد كثير من الصحابة أنهم انقرضوا ، وأن لا نفاق بعد النبي ﷺ ، وكان منهم بعض كبار الصحابة .

ولكن النفاق كان ولا يزال خصيصة من خصائص الانسانية ، ونقطة ضعف فى كثير من النفوس البشرية ، فهو يساير الركب البشرى فى جميع مراحله ومنازله ، و يرفع عقيرته إذا وجد مجالا و متسعاً ، وقد هيأت بعض الظروف التى لا مجال لتفصيلها فى هذا الحديث . لنشاطه ونفوذه ، ولظهوره على مسرح الحكم و الادارة ، والقوة الحربية والجهاز الحكومى وفى السوق والمنتديات ، والعلم و الشعر والأدب ، فى العهد الذى كان الاسلام فيه زاحفاً مقتحماً . فاتحاً غانماً . حاكماً مالكاً ، واقترنت بالدخول فيه والظهور بمظهر ه فوائد سياسية

و إجتماعية واقتصادية ، هنالك برز النفاق فى الميدان . وتبوأ كثير من أصحابه مراكز رئيسية حساسة فى حدود الدولة الاسلامية الواسعة، وكان منهم من استطاع أن يفرض نفسه على هـــذه الدولة الناشئة بمهارته فى بعض الفنون و الصناعات ، أو بفضل من ذكاء وتفوق فى العلم ، فكان منهم كبار الاداريين ، و قادة الجيوش ، و كبار الكتاب و الأعوان .

و فى مثل هذه الظروف سئل سيد التابعين الامام الحسن البصرى عن وجود النفاق والمنافقين والدولة للاسلام والمسلمين ، فأجاب بالايجاب ، و لم يثبت وجودهم فحسب بل أعلن أنهم فى قوة وشوكة ، وفى موقف نفوذ وتأثير، قال له رجل : يا أباسعيد ! أليوم نفاق ؟ قال : لو خرجوا من أزقـــة البصرة لاستوحشتم فيها ، و قال مرة : لو خرجوا لما انتصفتم من عدوكم ، و قال فى مناسبة أخرى : يا سبحان الله ! ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرها و استأثر عليها (١) .

و بقى هـــذا النفاق يعمل عمله و يثبت وجوده فى المجتمع الاسلامى حتى فى أوج عظمته السياسية والحضارية ، بل كان أقوى

---

(١) مقتبس من « صفة النفاق و ذم المنافقين » للمحدث أبى بكر ص ٦٨ .

وأنشط فى عهود المجد السياسى والمدنى لضعف التربية الاسلامية ، وندرة المربين الربانيين المزكين للنفوس ، المهذبين للأخلاق ، وفساد نظام التربية فى بعض العهود و كونه قنطرة للوصول إلى كراسى الحكم و مراكز القيادة ، و لاحتياج الملوك والأمراء إلى الحذاق البارعين فى بعض العلوم و الآداب والكتابة و الادارة ، بصرف النظر عن عقيـــدتهم و سيرتهم و أخلاقهم ، و استمر ذلك إلى آخر عهد من عهود الحكومات الاسلامية فى الشرق والغرب .

* * *

وجاء عهد الاحتلال الأجنبي وغزو الغرب الفكرى والثقافى ، و وقع الشرق الاسلامى — بارادة أو بغير إرادة — فى حضانة التربية الغربيـة ، و نظمها التعليمية ، و مناهجها الفكرية ، و قيمها و مثلها العليا ، و تصورها للحياة والانسان ، ونظرتها إلى العلوم و الآداب ، كما يترامى الطفل الصغير فى أحضان مرب كبير، ويقبل نظامه التعليمى ، وبالأصح فكرته التعليمية ، بحذافيرها وعلى علاتها، التى ولدت و نشأت و اختمرت فى بيئة تؤمن بعقائد وأسس ، ومبادئ وقيم، ومفاهيم ومثل ، تختلف كل الاختلاف عن العقائد والأسس ، و المبادئ والقيم ، والمفاهيم و المثل ، التى يؤمن بها المجتمع الاسلامى ، أو يجب أن يؤمن بها و يعيش لها ، و يجاهد

فى سبيلها ، بل تقوم على نفيها و هدمها أحياناً ، و التهكم بها و الاستهانة بقيمتها أحياناً أخرى ، فكان مثله كمثل رجل يتناول السم الزعاف ليعيش ، ويشرب الماء الملح الأجاج ليروى غلته ، وحكموا فى تخطيط برامجهم التعليمية ، ومؤسساتهم العلمية ، الاخصائيين أو المستشارين من البلاد الأجنبية ، و لم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب ، بل النظرات التعليمية و التصورات التربوية ، و أرسلوا البعثات إلى الخارج لتنشأ فى أحضان المربين الغربيين والأساتذة الأجانب . ثم اطلقوا أيديهم ومنحوهم كل حرية فى تخطيط البرامج التعليمية وسياسة التعليم فى هذه الأقطار الاسلامية .

فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة فى العقائد و الأفكار ، و السيرة و الأخلاق . أحسن أحوالها أن تكون مذبذبة بين الفكرة الغربية و الفكرة الاسلامية ، و إلا فهى فى أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها و أمتها و بلادها .

و ذلك شئ طبعى لا يستغرب وجوده . إنما يستغرب عكسه ، وقد يكون هؤلاء الاخصائيون أو المستشارون وتلاميذهم مخلصين فى عملهم يريدون الخير للأقطار الاسلامية و الأجيال الاسلامية فى هذا التخطيط التربوى ، وفى هذه السياسة التعليمية .

و لكن ذلك لا يمنع من تعرض هذه الأقطار و الأجيال لهذا الاضطراب الفكرى ، أو التناقض المبدئى ، ولكثير منهم العذر فى ذلك لقلة معرفتهم بهذا الدين و أسسه و مبادئه ، و طبيعة هذه الشعوب الاسلامية وما يتفق مع شخصيتها و رسالتها ، و ما يتنافى معهما ، و قد تكون محاولتهم لانقاذها — بإخلاص وحسن نية — ذريعة إلى هلاكها . و قد أعجبنى ما قاله الأستاذ Don Adams عن هؤلاء الموجهين أوالمستشارين الأجانب فى كتابه (١) « المخطط التربوى للجتمعات المعاصرة » يقول :

« إن أبلغ مثل يضرب للأضرار التى تلحق بالشعوب بخطأ يصدر من المستشارين التعليميين الأجانب ، ماجاء فى حكاية شرقية، يصور موقف هؤلاء الماهرين تصويراً دقيقاً . زعموا أن ناحية من النواحى أصيبت بفيضان عظيم، تورط فيه قرد و سمكة . وكان القرد شاطراً ومحنكا قد جرب مثل هذه الفيضانات ، فتسلق فرع شجرة و أمن خطر هذا الفيضان ، ووقع بصره على السمكة تكافح

(1) N. Thut and Don Adams : « Educational Patterns In Contemporary Societies » McGraw Hill Book Co New York (1964) P. 352 .

تيار الفيضان ، وتطفو على سطح البحر ، و احتمل القرد العطف على هذه السمكة المسكينة و رق لها قلبه ، فنزل من الشجرة وأنقذ السمكة بكل إخلاص من هــذا الخطر ، و جاء بها إلى الساحل و ألقاها على الرمل حيث لا تصل إليها الأمواج ، وكانت النتيجة ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير » .

و قد اتفق أعظم علماء التربيــة فى العهد الحاضر على « أن عملية التربية فى أمة و بلاد ليست بضاعة تصدر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالمصنوعات أو المواد الخام ، أو الحاجيات و المخترعات التى لا تختص ببلد دون بلد ، إنما هو لبـاس يفصل على قامة هذه الشعوب و ملامحها القومية ، و تقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضلة ، وأهدافها التى تعيش لها ، وتموت فى سبيلها (١) وأن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التى يؤمن بها شعب أو بلد ، و تغذيتهــا بالاقتناع الفكرى القـائم على الثقة والاعتزاز . وتسليحها بالدلائل العلمية ، إذا احتيج إليها ، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة ، و نقلها سليمة إلى الأجيال القادمة وأن

(١) مقتبس من محاضرة كاتب السطور « مهمة التربية و التعليم » المدرجــة فى كتابه « نحو التربية الاسلامية الحرة » .

أفضل تفسير لنظام التربية هي أنها السعي الحثيث المتواصل يقوم به الآباء و المربون لانشاء أبنائهم، على الايمان بالعقيدة التي يؤمنون بها، و النظرة التي ينظرون بها إلى الحياة و الكون، و تربيتهم تربيـــة تمكنهم من أن يكونوا ورثة صالحين للتراث الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم، مع الصلاحية الكافية للتقدم و التوسع في هذه الثروة (١).

و قد جاء في تقرير تربوي قدمه بعض كبار خبراء التربية في بريطانيا ما خلاصته:

« إن مصلحة الحكومة في أن تطمئن إلى أن المدارس القائمة في حدودهـا كفيلة بنقل جميع أجزاء الحياة القوميـة إلى الأجيـال القادمة، جيلا بعـــد جيل، إن الفكرة التي يجب أن تسيطر على سياسة الحكومة التربوية المرسومة، و تسندهـــا . هي أن ينشأ الأطفال ورثة للخصائص القومية، وخلفاء آبائهم بالجدارة (٢).

---

(١) يرجع إلى دائرة المعارف البريطانية مقـالة « التربية » و كتابات أحد أئمـــة فن التربية في العهد الحاضر جان ديوي **John Dewey**.

(2) Secondry Education with Special Reference to Grammar and technical Schools. H. M. S. O. 1931 PP 147 - 148.

و يقول F. W. Garford فى كتابه « التربية و الغـاية الاجتماعية »:

« إن أفضل محك لنجاح التربية وإخفاقها، هو تقاليد المجتمع والقيم السائدة ، فهى الأسس التى تقوم عليها خصائصها وبقاؤها. ومما لابد منه أن لا تكون بينها و بين التربية فجوة فكرية أو عدم انسجام. فعلينا أن نلاحظ دائماً أن كل محاولة للتقدم تقوم على القيم المقررة التى يؤمن بها هذا الشعب ، فيجب أن تقوم عليهـا جميع التجارب التى يقوم بها رجال التربية (١) » .

و نكتفى بشهادة أخرى أكثر تركيزاً و أشد صراحة لأحد علماء التربيـة Vernon Mallinson يقول :

« إن التعليم القومى عبارة عن ميثاق فكرى تتجلى فيه غاية المجتمع المشتركة و مساعيـه المشتركة ، و يمثل هذا الميثاق العاطفة القومية ، و يكون مزيجاً من خصائص لابد منهـا لتحقيق مطامع هذا المجتمع و أهدافه » (٢) .

---

(1) F. W. Gardford فى كتابه « Education and Social Purpose»' London (1962) PP 46-47 .

(2) « An Introduction to The Study of Comparative Education » (London 1957 Page 4) .

وقد أخذ الغرب — على اختلاف نظمه السياسية و مدارسه الفكرية ، و معسكراته الشرقية و الغربية وعلى جميع علاته و عيوبه التى ننتقدها — بهذا المبدأ التعليمى ، و طبقه تطبيقاً دقيقاً شاملا فى جميع مجالات التربية ، وأصبحت المناهج التعليمية وسياسة التربية خاضعة لهذا المبدأ المقرر .

و لم تكن روسيا الشيوعية المعروفة بالتطرف و الثورة أقل تطبيقاً لهذا المبدأ من البلاد الرأسمالية والديمقراطية ، بل لعلها كانت — للاحتفاظ بعقيدتها الشيوعية و روحها الثائرة — أدق تطبيقاً له ، و أشد غيرة على مبادئها ، جاء فى بيان رسمى صدر فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٨م .

« إن العلوم العمرانية والاجتماعية تمثل دوراً حاسماً فى تحقيق خصائص المجتمع الشيوعى . إنه من ألزم اللوازم أن يكون أصحاب الاختصاص فى كل فن على اطلاع كاف بالمبادئ الماركسية واللينينية ، إنه يجب أن يتلقى شبابنا تربية تسرى بها فيهم روح المقت الشديد ، و التعصب ضد الرأسمالية والرجعية » (١) .

---

(1) George. S . Count ' « The Challenge of Soviet Education » New York : McGraw Hill Book co. 1957 Pages 50-51 : 32) .

و بذلك سلم الغرب من هذا التناقض الذى يعيشه الشرق ، سواءاً الأقطار الاسلامية منه وغير الاسلاميــة ، فلا وجود فى الغرب لهوة عميقة سحيقة فكرية و عقائدية بين الشعب و القيادات ، أو الجماهير و الحكومات ، إنما هناك طراز واحد و نمط واحد للمبادئ والقيم و المثل و الغايات ، و ليس هناك صراع فكرى و نفسى عنيف قاس بين مختلف الطبقات وأفراد المجتمع ، ولذلك أمن الثورات الداخلية ، والمؤامرات ضد سلامة الشعب ، ومصالح البلاد .

و تتلو الغرب أقطار شرقيـة ذابت فيهـا العقيدة من عهد بعيد ، وهى لا تؤمن بحقائق تقوم على الايمـــان بالغيب و اتباع الرسل، وليست عندها تعاليم سماوية معينة أوصحف سماوية محفوظة و إنها تتمسك بالتقاليد و الأعراف ، والمصالح القومية و الفردية التى لا تتحداهـا هذه النظم التربوية ، وليست منها بسبيل ، فهى سليمة كذلك من هــذا التناقض الذى يولده نظام التربية الغربى ، بل هى فى اصطلاح و تفاهم مع هـــذه النظم ، أو تكيف نفسهـا و أفكارها وفق هذه المناهج و موادها ، فالثورات و المؤامرات فيها قليلة بالنسبة إلى الأقطار الاسلامية ، و التناقض قليل وضعيف

لا أثر له فى الحياة القومية، والغدر القومى و الخيانة الوطنية نادرة جداً ، و ليست بين الطبقة المثقفة والموجهة للبلاد ، وبين الجماهير ذلك الخليج الواسع الذى نشاهده فى الأقطار الاسلامية ، و إن أدواء هذه الأقطار و عيوبها من جنس آخر، ولها أسباب ترجع إلى تاريخها و طبيعتها و عقائدها ، وفقدان الوازع الدينى و قلة الوعى ، و فساد نظام التربية .

أما الأقطار الاسلاميــة فهى مسرح للتناقض العجيب بين الطبقات الحاكمة أو الزعيمة ، و بين الجماهير فى جانب ، و بين الطبقات المثقفة ثقافة عاليــة و الطبقات التى تغلب عليها الأمية ، و بين الطبقات المتدينة المحافظة و بين الطبقـات المتحررة التقدميـة فى جانب آخر ، وذلك كله نتيجة نظام التربية الغربى المستورد من الخارج ، أو المصوغ فى الداخل على فكرة النظام الغربى وخطوطه ، فهو ينشئ جيلا لا يسيغ العقائد والحقائق التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى أو الأمة الاسلامية ، لأن ما يعطيه هذا النظام ويغرس فى النفوس و العقول يتناقض تناقضاً واضحاً مع العقائد و الحقائق التى يؤمن أو يجب أو يؤمن بها هذا المجتمع أو الأمـة ، و إذا أساغها فانما يسيغهـا بمعجزة أو بتأثير خارجى يضعف سلطان هذا

النظام . وذلك شاذ لا يقاس عليه .

و إذا وجدت هذه الطبقة أو الجيل الذى نشأ فى أحضان هذا النظام ، و رضع بلبانه ، بقى فى صراع دائم مع عقيدة الشعب و عقليته وعواطفه واتجاهاته . فاذا كان قوى النفس قوى الارادة حاول أن يزيل أنقاض العهد القديم أو الرجعية (كما يقول بعض أفراد هذه الطبقة) و يخلص الأمة و البلاد من ركام الماضى ، وهنالك تقوم معركة تستهلك طاقات و كفايات كانت الأمة أحوج إليها ، وتقوم حرب داخلية قد تكون أطول وأعنف من الحروب الخارجية ، و هذه قصة بلاد ابتليت بزعامات دانت بمبادئ و فلسفات ثورية أو قومية أو علمانية .

و إذا كان هؤلاء الأفراد ضعيفى النفس والشخصية والارادة، أصيبوا بمركب النقص ، وبكره شديد للعقائد والأهداف التى يؤمن بها الشعب ، فيحيكون المؤامرات و يمالئون الأجانب ، وينتهزون كل فرصة للتخلص من ضغط الشعب الدينى ، و نفوذ الدعاة الذين ينادون بالاسلام ، فتكثر حوادث الخيانة القومية ، و تعيش البلاد فى جو من الاضطراب و الارهاب ، وعدم الثقة و الشك و البلبلة الفكرية .

و لا سبيل إلى التخلص من هذا الوضع غير الطبيعي وغير الضروري إلا قلب هـــذه الأوضاع التعليمية رأساً على عقب ، و صياغتها صياغة جذرية جديدة ، و هي قضية العالم الاســـلامي الكبرى ، و ضرورته القصوى ، ونداء الوقت و فريضة الساعة .

وهنا أختم حديثي باستعارة قطعة من إحدى كتاباتي السابقة ، و معذرة للمستمعين الكرام الذين مرت بهم هذه القطعة قديماً :

« و حل هذه المشكلة — مهما تعقد و طال و احتاج إلى الصبر والمثابرة — ليس إلا أن يصاغ هذا النظـام التعليمي صوغاً جديداً ، و يلائم بعقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها و أهدافها و حاجاتها ، و يخرج من جميع مواده روح المادية و التمرد على الله والثورة على القيم الخلقية والروحية ، وعبادة الجسم و المادة ، و ينفخ فيه روح التقوى و الانابة إلى الله ، و تقـدير الآخرة ، والعطف على الانسانية كلها ، فمن اللغة والآداب إلى الفلسفة وعلم النفس ، و من العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة ، لا تسيطر عـــلى كل ذلك إلا روح واحدة و يقصى استيلاء الغرب العقلي ، و يكفر بامامتـه و سيادته ، و تجعل علومـــه و نظرياته موضوع الفحص و الدراسة الجريئة ، و يوضح ماذا جنى نفوذ

الغرب و سيطرته على الانسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعة و حرية ، و تعتبر كمواد خامة (Raw Material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا و رغباتنا ، و عقيدتنا و ثقافتنا .

إن هذا العمل و لو كانت فى طريقه عقبات و عراقيل ولو تأخرت نتائجه ، ولكنه حل وحيد للوجة الطاغية التى قد اكتسحت العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد و التغرب التى تتحدى الكيان الفكرى للاسلام و جهازه الاجتماعى ، وظلت تهدد حياته و بقائه ، و نتيجة لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة و تضحياتها و جهودها و إخلاصها و وفاؤها (التى هى السبب المباشر الأساسى فى إنشاء الحكومات الاسلامية ، و تحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً فى نار التجدد و التغرب . وأصبحت الجماهير المسلمة السليمة المخلصة ، المتحمسة الصامتة ، قطعاناً من الغنم يتحكم فى رقابها هؤلاء القادة والولاة ، وتساق إلى أى هدف فى صمت و هدوء (١) .

فهل من بلد إسلامى أو حكومة إسلامية أو جامعة من الجامعات المرموقة فى عواصم العالم الاسلامى تلبى هذا النداء .

---

(١) « نحو التربية الاسلامية الحرة » ص ٤٣ — ٤٥ .

و تركز جهودها و عنايتها و وسائلها على تحقيق هذا العمل البنائى الثورى الذى ينقذ العالم الاسلامى من أكبر خطر يتهدده بل من عملية الهدم والابادة الشاملة التى لم تعرف إبادة أكبر نجاحاً وأعمق منها أثراً فى تاريخ الأمم و الملل و الديانات والحضارات ، فهل من مجيب ؟ و قد قال الله تعالى :

« و لاتلقو بأيديكم إلى التهلكة (١) » ، وقال : « ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق (٢) » .

إن القتـــل المعنوى ليس أهون من القتل الجسمانى ، و لا فرق بين السم الناقع الذى يسرع بالانسان إلى الموت ، وبين السم الذى يتدرج به الانسان إلى الموت ، و قد نهى الله عن كل ذلك فقال :

« و لا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما (٣) » .

* * *

(١) سورة البقرة : ١٩٥
(٢) سورة بنى إسرائيل : ٣١
(٣) سورة النساء : ٢٩

مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)